السلطة والعنف في الغرب الإسلامي

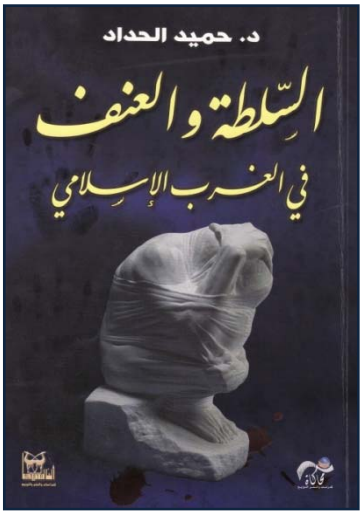

المؤلف: د. حميد الحداد

الناشر: النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا
محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا.

تاريخ النشر: الطبعة الأولى ٢٠١١

عدد الصفحات: ٣٦٥ من الحجم المتوسط

عرض

فريد فوغالية
ماجستير التاريخ الإسلامي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة - الجمهورية الجزائرية

تشهد الكتابة التاريخية في بلاد المغرب - خاصةً المغرب وتونس- تطورًا معتبرًا سواء على مستوى المناهج المطبقة، أو المواضيع المدروسة، وفي هذا الإطار تندرج دراسة الدكتور حميد الحداد المعنونة: "السلطة والعنف في الغرب الإسلامي"، وهي رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الوسيط. مُحاولاً تجاوز عقبة غياب دراسات تاريخية تُعنى بإشكالية العلاقة بين "السلطة" و"العنف" في المغرب الوسيط، وبِهَدَف تجديد الكتابة التاريخية المغربية من "الناحية الموضوعية على الأقل" كما ذكر الباحث، اقتحم حميد الحداد هذه "المغامرة" إدراكًا منه أن مثل هذه الإشكاليات كفيل برسم صورة أقرب إلى الواقع عن طبيعة الدولة المغربية الوسيطية وعلاقتها برعاياها.

لإنجاز هذه الدراسة استعمل الباحث مادة مصدرية غنية جدًا ومتنوعة تمثلت خصوصًا في كتب التراجم والمناقب، والمؤلفات الأدبية، وكتب النوازل المطبوعة منها والمخطوطة، وكتب الجغرافيا، ورسائل القضاء والحسبة، وكتب الآداب السلطانية، إضافة إلى مجموعة واسعة جدًا من الدراسات الحديثة سواء العربية أو الأجنبية.

فيما يخص المنهج، اعتمد الباحث على مقاربة نفسية - سيكولوجية بالبحث في طفولة بعض الحكام، والجوانب الخفية في شخصياتهم، حيث اتضح حسب الباحث "سادية" كثير منهم مثل: المعتضد العبادي، ابن تومرت، المنصور بن أبي عامر... مع ربط ذلك بالمحيط الاجتماعي والسياسي للظاهرة، كما تناول الموضوع أيضًا بمقاربة أنثروبولوجية مُبينا أن الذهنية السائدة آنذاك كانت تنظر إلى القتل والتعذيب في كثير من الأحيان "نظرة عادية".

تتناول هذه الدراسة الفترة الممتدة مابين القرن الخامس الهجري/ الحدي عشر ميلادي (بروز ملوك الطوائف بالأندلس وصعود نجم المرابطين)، والسابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي (سقوط دولة الموحدين)، مع تمديد فترة الانطلاق في كثير من الأحيان خاصةً بالأندلس، مُعتبرا مرحلة حكم العامريين وأحداث العنف التي شهدتها بمثابة إرهاص وإعلان لما سيحدث في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي. تُركز هذه الدراسة على أعمال الاعتقال والقتل والضرب والتشهير، مُتَناولاً العنف الممارس من قبل السلطة ضد الأفراد، وهو ما يُسميه الكاتب "العنف المؤسساتي المنظم".

تنقسم دراسة حميد الحداد إلى بابين، تحت عنوان: السجن تندرج تحت الباب الأول سبعة فصول، يتناول **الفصل الأول** تعريف لغوي لمصطلحي السجن والعقاب، أما **الفصل الثاني** فيتناول أنواع السجون، وهي حسب الباحث قسمين: القسم الأول: سجون الخاصة، خُصصت للأشراف وعِلية القوم، توفرت فيها وسائل الراحة وامتيازات متعددة مثل: عدم التقييد، حق الزيارة، وجود مكان للصلاة، حرية الاتصال والمراسلات، حرية التأليف، والمغادرة المؤقتة عند الحاجة، وبالتالي فإنها أقرب إلى الإقامة الجبرية. القسم الثاني: سجون العامة، وهي مخصصة للطبقة العامة وتتميز بضيق المساحة وقلة النظافة، وضعف التهوية، وقلة الطعام، إضافة إلى سوء المعاملة.

أما **الفصل الثالث** فإنه يُعالج الأسباب المؤدية إلى السجن، وهي حسب الباحث سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية، واستنتج الباحث أن الأسباب السياسية هي أهمها جميعا ذلك أن "السياسة لعبة خطيرة لا تستقيم لصاحبها على الدوام"، يؤكد ذلك تعرض الحكام أنفسهم والأمراء والوزراء للسجن. أما الأسباب الاقتصادية والاجتماعية فترتبط بخيانة الأمانة واختلاس الأموال، وفرض ضرائب مجحفة على السكان، والقتل أو الفساد في الأرض، أو السرقة أو عقوق الوالدين... أما الأسباب المذهبية، فقد شَكل من يُطلق عليهم الباحث اسم "أصحاب الفكر المُسْتَنير" وهم الفلاسفة والمنجمين وبعض الشعراء أهم ضحايا السجن، وأبرز مثال على ذلك "الحجابة العامرية" في الأندلس التي اضطهدت هذه الفئات، كما تعرض المتصوفة لمختلف أشكال العنف من اعتقال وسجن ونفي وطرد وتعذيب، خاصة من قِبل المالكية في العهد المُرابِطي، بسبب تخوف السلطة الحاكمة من اتساع قاعدة المُريدين، واعتبارها لهم خطرا على الوحدة المذهبية للدولة، فالسجن حسب الباحث أصبح أداة لقهر المخالفين في الرأي والعقيدة.

دورية إلكترونية محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وفي **الفصل الرابع** يتناول الباحث طبقات المسجونين، حيث يتضح أن السجن قد مس جميع الشرائح الاجتماعية مثل: الحكام، وأفراد الأسرة الحاكمة، والوزراء، والكتاب، والفقهاء، والقضاة، والولاة، والقواد، والشيوخ، والشعراء، والمتصوفة، والثوار، والأبناء، وعامة الناس.

وجاء **الفصل الخامس** ليعالج مكان ومدة السجن، حيث تطرق الباحث إلى مختلف أنواع السجون(قلاع، مطبق، قصر، منزل...) وافتقار جلها لأبسط وسائل الراحة، ويرتبط موقع السجن غالبًا بقصور الحكام خاصةً في الأندلس لإشرافهم عليها، ولحمايتها من الاعتداءات وحاجة الحكام للتكتم على عمليات الحبس والتعذيب والقتل التي تحدث دون الرجوع لحكم القضاء. أما فيما يخص مدة السجن فإنها تختلف باختلاف الجاني ونوع الجريمة، حيث يُلاحظ الباحث عدم تساهل الحكام مع المتآمرين ضدهم، بينما في بعض القضايا كانت مدة السجن لا تزيد عن ليلة أو ثلاث.

في **الفصل السادس** يتناول الباحث قضية التعذيب داخل السجون، حيث يتعرض جُل السجناء -خاصةً السياسيين منهم- لمختلف أشكال التعذيب من ضرب وتقييد وتَكبيل... إضافةً إلى أنواع التعذيب النفسي كالتشهير والمثلة (التمثيل بالسجين)، وقد أدت مثل هذه الأفعال إلى وفاة كثير من السجناء. على الرغم من أنه كانت هناك أوامر من قبل بعض الأمراء بحسن معاملة السجناء وتفقد أوضاعهم، إلا أنها كانت مبادرات فردية وظرفية ليس لها أثر مهم في تغيير واقع السجون.

أما **الفصل السابع** فإنه يتناول عمليات الفرار وإطلاق السراح، حيث يلاحظ الباحث قلة عمليات الفرار نظرا لمناعة السجون والحراسة المشددة، أما إطلاق السراح فقد تعددت أسبابه مثل تغير الحكام أو الدول، وارتباطه بأحداث معينة مثل البيعة، أو فتح مدينة، أو دفع فدية، كما شكل الشِّعْرُ والاستعطاف في كثير من الأحيان سببًا رئيسيًا للإفراج عن المسجونين.

في **الباب الثاني** من الكتاب تطرق حميد الحداد إلى مسألة القتل الفردي، أي قتل الأفراد مُقَسما إياه إلى فصلين، يتناول **الفصل الأول** القتل دون المثلة، أي التمثيل بالأجساد، حيث يعالج القسم الأول منه المعنى اللغوي لمصطلحي "القتل" و "صبر" أي الإعدام، ثم حق الحياة من منظور الشريعة الإسلامية، ثم يعرض الباحث فكرة مفادها "سيادة السياسة الدموية في العصر الوسيط" انطلاقًا من أعمال حكام مثل المعتضد العبادي، وابن تومرت، والمنصور بن أبي عامر، ومحمد بن عبد الله البرزالي شيخ زناتة...إلخ.

أما القسم الثاني فانه يتناول طبقات المقتولين وقد شمل القتل جميع عناصر المجتمع من أعلى الهرم السكاني إلى أدناه، كما يَسْتَعرض مختلف الأدوات المستعملة في القتل مثل: السيف، الرمح، السهم، السكين، المُدية... إلخ.

وجاء القسم الثالث من هذا الفصل ليعالج مسألة الاغتيال والتسميم والخنق، إذ شكل الاغتيال وسيلة فعالة في التخلص من الخصوم السياسيين خاصة، نظرًا لسريته وفعاليته، وهذا يُبرز حسب الباحث جانبًا مظلمًا من جوانب العنف والطغيان السلطوي الذي شهده العصر الوسيط، ودون أي اعتبار للقيم أو الدين أو روح الإنسان. كما يتناول أيضًا التسميم الذي لم ينتشر بشكل واسع، وقد مس رجال السياسة بشكل خاص، وقد تنوعت طريقة تمرير السم لكن الطعام والشراب كانا الأكثر انتشارًا ونجاعة. أما عمليات الخنق فإن الباحث يشير إلى قلة المعطيات حولها بما قد يُفسَر بقلة اللجوء إليها في التصفية الجسدية.

أما **الفصل الثاني** فإنه يتناول القتل مع المثلة، حيث يعالج القسم الأول عمليات حز الرؤوس وتعليقها على شرفات أبواب وأسوار المدن كمراكش وفاس وغرناطة وإشبيلية ... وتعتبر هذه الطريقة وسيلة للتهديد والوعيد لكل من تسول له نفسه الخروج على الحاكم، أي أنه نوع من إبراز القوة والقدرة على البطش بالأعداء والتنكيل بهم.

وفي القسم الثاني يتناول الباحث عمليات الصلب للأجساد، والهدف من ذلك حسبه ليس إعادة التوازن للمجتمع فقط، بل هو إظهار الخلل بين فرد من الرعية تجرأ على العصيان والحاكم القوي، فالصلب يحمل في طياته غاية السلطان في إظهار قوته وجبروته، فالثائر تجاوز عقد البيعة وهو بذلك تحدى شخص الحاكم وشرعية حكمه، فيكون لزاما على الحاكم إظهاره – الثائر- بمظهر المنهزم المُحطم، وذلك تحقيقًا لغاية أخرى وهي ترهيب الرعية وإشعارها بغضب الخليفة وقوته وجبروته.

أما القسم الثالث فإنه يتناول العبث بالأجساد، مثل الطواف بالأجساد والجثث، وحلق اللحية والرأس، وبتر الأعضاء، وسمل الأعين، والضرب والإحراق، والذبح، وإغراق الجثث، والسلخ ونبش القبور. حسب الباحث فإن الغاية من التنكيل بالأجساد سواء للأحياء أو الأموات هو التشهير والحط من قيمة الشخص وإبراز قوة السلطة وانتصارها على أعدائها، وكان الهدف من بتر الأعضاء هو "نقش العقاب على الجسد" حتى يبقى واضحا للعيان، كي يُرسخ هيبة وكبرياء السلطة.

تَخلُص هذه الدراسة إلى أن اعتماد السلطة على البطش والعنف في تعاملها مع الرعية كان بغرض تحقيق ما يُمكنها من الرِفعة السياسية والتفرد بالملك، حتى لو كان ذلك باستغلال مبررات دينية وسياسية حَولت القتل إلى فعل مُطابق لتاريخ تعمل على صياغته. إن عمليات السجن والقتل والتعذيب التي مورست خلال هذه الفترة تؤكد حسب الباحث على "سادية" أغلب حكام الفترة المدروسة.

في الأخير، يتضح من خلال هذه الدراسة أن الباحث عرض فكرة مُؤداها أن لجوء السلطة إلى عمليات السجن والقتل والتعذيب ليس الغرض منه تصفية الأجساد فقط، وإنما هو التخلص من الجسد الذي يُمثل وعاء الفكرة المُعارضة للحكم، كما أن هذا العنف الممارس من قبل السلطة يرتبط ارتباطًا وثيقا بحركة المعارضة، فالسلطة أو النخب الحاكمة تلجأ إلى كل الوسائل الضرورية لحماية النظام وحماية مصالحها بما فيها العنف والبطش.

إن أهمية دراسة حميد الحداد تكمن في أنها أماطت اللثام عن جانب مُغَيب ومنسي من تاريخ الغرب الإسلامي، كما أنها ترسم صورة أقرب إلى الواقع عن الدولة المغربية، وطبيعة العلاقة القائمة بين السلطة الحاكمة ورعاياها، وهو ما يجعلها دراسة مهمة جدًا في معرفة تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط.

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449